منهجُ أبي حامدٍ الغزاليِّ في تقويمِ المصطلحِ الدينيِّ

د. يوسف بن علي بن عبدالله الطريِّف

أستاذ في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
في جامعة القصيم ، المملكة العربية السعودية

منهجُ أبي حامدٍ الغزاليِّ في تقويمِ المصطلحِ الدينيِّ

يوسف بن علي بن عبدالله الطريِّف
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة القصيم ، المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : trief@qu.edu.sa

ملخص البحث:
يشكل المصطلح الديني الأساس في حد المعرفة الدينية، ويعد الإمام أبو حامد الغزالي ــ رحمه الله ــ أحد رواد النظريات (الابستمولوجية) في التاريخ الإسلامي؛ وله منهجه الذي اتبعه في التعامل مع المصطلحات والألفاظ الدينية، وقد رصدَ شروطاً وضوابطَ لقبوله، كما أن له موقفاً من المصطلحات الحادثة.
فما شروطه وضوابطه في المصطلح الديني؟
وما تقويمه للمصطلح الوافد؟
ذلك ما احتوته هذه الدراسة، مع محاولة اتباع منهجية تحليلية وصفية يتضح من خلالها المنهج التقويمي للمصطلح الديني عند الغزالي.
الكلمات الافتتاحية: منهج، الغزالي، المصطلح الديني.

The methodology of Abu Hamid Al-Ghazali in evaluating the religious term

Yousef Ali Abdullah Al-Turaif
Department of Contemporary Aqidah and Doctrines at Qassim University, Kingdom of Saudi Arabia
Email :trief@qu.edu.sa

Abstract:
The religious term forms the basis for religious knowledge, and Imam Abu Hamid al-Ghazali - may God have mercy upon him - is considered one of the pioneers of theories (epistemological) in Islamic history. He followed his approach in dealing with religious terms and expressions, by selecting conditions and principals to be accepted, and he has an opinion regarding the modern terminology.
What are his conditions and principals in the religious term?
What is his evaluation upon the modern terminology?
This is what this study contains, with an attempt to follow an analytical and descriptive methodology through which the evaluation method of the religious term in Al-Ghazali becomes clear.
Keywords: Method, Al-Ghazali, The Religious Term

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمةٌ:

حمداً لله، وصلاةً وسلاماً على نبينا وسيدنا محمدٍ؛ وعلى آله وصحبه.

يُشكّل المصطلحُ الدينيُّ الأساسَ في حدّ المعرفة الدينية، وكثيراً ما ينشأ الخلاف والتنازع بين الناس بسبب اختلافهم وتنازعهم في المعاني والمفاهيم لبعض المصطلحات المتعلقة بالمسائل محل النزاع، ويشتد الخلاف حينما يغيب المنهج الذي يُبنى عليه ذلك مفهوم المصطلح ومعناه، وحينئذٍ فإن التركيز على فهم المصطلحات الشرعية خاصة، أو الوضعية المحدثة للعلوم الإنسانية عامة؛ له أهمية قصوى، ومن هنا كان لزاماً على المشتغلين في العلوم الشرعية على وجه التحديد أن يُعنَوا بهذا المجال عنايةً فائقةً.

ولأهمية موضوع المصطلح في الفكر الإسلامي؛ قام عدد من العلماء والباحثين قديماً وحديثاً بتأليف مصنفات مستقلةٍ للتعريف بالمصطلحات، وشرح تعاريفها، والغوص في معانيها، وهي كثيرة مشهورة.

ولما كان الإمام أبو حامد الغزالي ــ رحمه الله ــ أحد الأعلام البارزين في التاريخ الإسلامي، وكان متنوع المعارف، غزير العلم في فنون شتى، وله اشتغال في الفلسفة، والتصوف، إلى جانب علو قدره في الفقه وأصوله، آثرت بأن تكون هذه الدراسة المختصرة، تبرزُ شيئاً من ملامح منهجه في تقويم المصطلح الديني.

مشكلة الدراسة:

هذه الدراسة محاولة للإجابة عن تساؤلات؛ منها:

ــ ما أهم الضوابط التي نص عليها أبو حامد الغزالي لفهم المصطلح الديني؟

ــ ما موقف أبي حامد الغزالي من المصطلحات الحادثة من حيث القبول أو الرد؟

ــ ما الذي تميز به منهج أبي حامد الغزالي في تقويم المصطلحات الدينية أو المحدثة.؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١ــ جمع أهم الضوابط التي ذكرها أبو حامد الغزالي في مصنفاته لفهم المصطلح الديني.

٢ــ بيان موقف أبي حامد الغزالي من المصطلحات الحادثة.

٣ــ التعرّف على أبرز ما تميّز به منهج أبي حامد الغزالي في تقويم المصطلح الديني والمصطلح المحدث.

منهج الدراسة:

تتطلب هذه الدراسة استخدام المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي.

الدراسات السابقة:

لا شك أن الدراسات حول شخصيةٍ بارزةٍ كأبي حامد الغزالي كثيرةٌ وافرة [١] إلا أنني لم أجد من بينها ما يختص بموضوع هذه الدراسة.

خطة الدراسة:

اشتملت هذه الدراسة على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس.

والمبحثان؛ هما:

المبحث الأول: شروط الغزالي وضوابطه في المصطلح الديني.

المبحث الثاني: موقف الغزالي من المصطلح الديني المحدث.

(١) منها ــ على سبيل المثال ــ: الإمام الغزالي وآراؤه الكلامية، د. عبدالرحمن درع، الإمام الغزالي، صالح الشامي، سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه، عبدالكريم عثمان، الاتجاه الصوفي عند الغزالي، سهام خضر... وغيرها كثير.

تمهيد

يُعتبر الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليُّ الطُوسيُّ (٤٥٠-٥٠٥هـ) [١] ــ رحمه الله تعالى ــ علماً من أعلام المسلمين البارزين، كان مُفرطَ الذكاء، قويَّ الإدراك، ذا فطنةٍ ثاقبة، وغوصٍ في المعاني، ترك كثيراً من التصانيف في مختلف الفنون وأنواع المعارف، نافت على مائتي مصنف؛ بعضها في مجلدات عدة، وكَتبَ عنه وعن سيرته العربُ وغيرُ العرب، والمسلمون وغيرُ المسلمين، واختلفت آراءُ الناس فيه اختلافاً كثيراً. [٢]

واشتهرتْ إمامتُه في كثير من الفنون، بشخصية مميزة، مثيرةٍ للجدل، ولربما أدخله سيلانُ ذهنه وجريانُ قلمه في مضايق؛ فلم يسلم من انتقادات علماء محققين، وكلٌ بعد نبينا عليه الصلاة والسلام يؤخذ من قوله ويترك، وما أحدٌ بمعصومٍ من الخطأ. يقول الإمام الذهبيُّ (ت٧٤٨ه) ــ بعد أن سرد أقوالاً في نقد الإمام الغزالي ــ: "قلتُ: الغزالي إمامٌ كبير، وليس من شرط العالم أنه لا يُخطئ". [٣]

ويذكر الشيخ المازريّ المالكي (ت٥٣٦هـ) فيما نقله عنه تاج الدين السبكيّ (ت٧٧١هـ) : أن أبا حامدٍ قرأ علوم الفلسفة فأكسبه ذلك جرأةً على المعاني، وتسهيلاً للهجوم على الحقائق...قال: "لأن الفلاسفة تمرٌ مع خواطرها، وليس لها حكمُ شرعٍ ترعاه"...! كذا قال؛ وهذا ما انتهى إليه رأيه! ويتضح من أنه ناقم على الإمام الغزالي دخولَه في الفلسفة؛ كما قد عاب عليه غيرُ واحد من العلماء ذلك، وقد عقب السبكي على ما ذكره

(١) انظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ٢٣٦/٦وما بعدها، ن: دار هجر، مصر،١٤١٣ه، و: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٣٣٥/١٩ وما بعدها، ن: مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٤٠٥ه، وانظر: سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه، عبدالكريم عثمان، نشر: دار الفكر بدمشق، و: الإمام الغزالي، صالح الشامي، ن:در القلم، دمشق،١٤١٣ه.

(٢) انظر: الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، ص٣٤٠وما بعدها. ن: كلمات عربية.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٣٣٩/١٩.

المازري بأن غوص الغزالي في المعاني لم يكن جرأةً منه، بل ما دلَّه عليه الشرع وإعمالُ الفكر. (١)

وأقول إن هذا النقد من المازريّ المالكيّ المتكلِّم الشهير؛ قد اكتنف في طياته دلالةً واضحة على أن أبا حامدٍ له باعٌ كبير في الغوص في الدلالات والمعاني، وإبحارٌ في قاموس المصطلحات؛ التي استخدمها في مصنفاته المتنوعة الغزيرة.

وهو وإن لم يطُل عمرُه فقد ابتدأ التأليف مبكراً في شبابه؛ وأقبل عليه إقبالاً عظيماً حتى آخر حياته؛ وقد بين ذلك في مقدمة كتابه (المنقذ من الضلال) فقال: "ولم أزل في عنفوان شبابي – منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السنُ على الخمسين – أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجَسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميّز بين محقٍّ ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سرِّ صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصّد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبّه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطُّش إلى دَرْك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري، وريعان عمري، غريزةً وفطرةً من الله وضعها في جِبلتي؛

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ٢٤١/٦، ن: هجر، مصر، ١٤١٣هـ.

لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد سنّ الصّبا...". (١)

وقد ذكر الغزالي أنه ابتدأ بعلم الكلام وحصّله، وصنّف فيه، ووصفه بأنه علمٌ وافٍ بمقصوده، لكنه لم يفِ بمقصوده هو! ثم ابتدأ بعلم الفلسفة؛ وكان غرضه الوقوفَ على فساده...كذا قال. (٢) ثم انتقل إلى التصوف، قال ابن كثير(ت٧٧٤هـ): "ويقال إنه مال في آخر عمره إلى الحديث والتحفظ للصحيحين". (٣)

ولقد رأيته في مواضع من كتبه يُعظم السلف ويجلهم، ويثني على مذهبهم؛ ويذكر أن المشكلة تكمُن في فهم كلام السلف؛ فها هو يقول ــ عند حديثه عن زيادة الإيمان ونقصانه ــ: "السلف هم الشهود العدول؛ وما لأحد عن قولهم عدول؛ فما ذكروه حق؛ وإنما الشأن في فهمه". (٤) وذكر في (إحياء علوم الدين) بأن علم السلف هو العلم المحمود الذي يجب أن يُقتدى فيه بالسلف؛ وأكثرُ ما بعدهم فمحدثٌ؛ يقول ــ رحمه الله ــ: "فقد عرفتَ العلم المحمود والمذموم ومثارَ الالتباس؛ وإليك الخِيَرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكبَّ الناسُ عليه فأكثرُه مبتدعٌ ومحدثٌ"، (٥) ويقول ــ

(١) المنقذ من الضلال، ص٢٤، ن: المكتبة الثقافية، بيروت.

(٢) المنقذ من الضلال، ص٣٢-٣٤.

(٣) البداية والنهاية، ٢١٤/١٢، ن:هجر، مصر، ١٤١٧ه. وانظر في التطور الفكري للغزالي بحث مختصر جيد: حجة الإسلام الغزالي وأطواره الفكرية، د. عرفات كرم ــ ٢٠١٣ منشور على الإنترنت، وكتاب: الإمام الغزالي، صالح الشامي ص ٧١ فما بعدها.

(٤) قواعد العقائد، ص١٢١، ن:عالم الكتب، بيروت،١٤٠٥ه.

(٥) إحياء علوم الدين، ٧٦/١، ن:دار المعرفة، بيروت.

أيضاً ــ: "واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحــق؛ أشــبهُهم بالصحابة، وأعرفُهم بطريق السلف؛ فمنهم أُخذ الدين".(١)

وأنا وإن لم أكن خبيراً بمصنفات الغزالي، وأنّى لي بذلك، وإنما قرأت شيئاً منها؛ إلا أنه قد تبين لي أن ما ذهب إليه بعض الباحثين في تقييم فكــر هذا الإمام متجهٌ؛ فالبحث في تراثه يُربك الباحثَ فلا يكاد يجزم له بــرأيٍ؛ ومن أمعن النظرَ في كتب هذا الإمام أدرك بأنه ــ كما يقول من نقَّب وبحث في مصنفاته ــ "لغزٌ يعسرُ حلُّه"! وأن أفكاره متعارضةٌ، وآراءَه متضاربةٌ، وبالغ بعضهم فرماه بالتناقض! (٢)

وعزا بعضهم(٣) ذلك إلى ما صرح به الغزالي في آخر كتابه (ميزان العمل) بعد أن افترض أن البعض قد يشكل عليه معرفة المذهب الذي يقول به الغزالي؛ فأجاب بأن معرفة حقيقة المذهب لا ينفع قط! ويذكر بأن لكــل كاملٍ ثلاثة مذاهب!:

أحدها: ما يتعصب له بسبب التقليد، والنشأة...

والثاني: ما يسار به في التعليم والإرشاد؛ ولا يتعين على وجه واحد؛ بل يختلف بحسب المسترشد؛ فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه؛ والمذهب بهذا الاعتبار يتغير ويختلف، ويكون مع كل واحد على حسب مــا يحتملــه فهمه.

والثالث: ما يعتقده الرجل سرّاً بينه وبين الله عز وجل، لا يطلع عليه غير الله تعالى، ولا يذكره إلا مع من هو شريكه في الاطــلاع علــى مــا اطلع... هؤلاء فريق، وفريق آخر يقولون: المذهب واحد؛ وهو المعتقد...

(١) إحياء علوم الدين، ١٥٤/١، وانظر: إلجام العوام عن علم الكلام، ص٤٢، ن: دار المعرفة، بيروت، ١٤١٥ه.

(٢) انظر: الحقيقة في نظر الغزالي، سليمان دنيا، ص١١، ن: دار المعارف، مصر.

(٣) انظر: الحقيقة في نظر الغزالي، سليمان دنيا، ص١١.

ثم يؤكد على أن الواجب على المرء أن يُجانب الالتفات إلى المذاهب، وأن يطلب الحق بطريق النظر، وأنه لا خلاص إلا في الاستقلال...ثم يبين بأن الشك في الاعتقاد الموروث يوصل إلى الحق!... (١).

ويعزو بعضُ الباحثين اختلافَ آراء الغزالي في كتبه؛ إلى اختلاف مراحل عمره، وصحته، قال: "فقد وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة، كان في بعضها يُحكّم العقل والشرع، وكان في بعضها يُساير الصوفيةَ في أوهامهم ووساوسهم"(٢).

ويضاف إلى ذلك ــ في رأيي ــ: الأطوار الفكرية التي مرّ بها الإمام؛ فاختلاف الآراء لمثله واردٌ، وإن كان قد يختلف رأيُه في طَور واحد.!

وأمر آخر في غاية الأهمية وهو: نفوره من التقليد، وإنكاره على المقلدين في معظم كتبه؛ مما يجعله متحررَ الفكر غيرَ هيّابٍ من مخالف أو ناقد.

ولذا فإن دراسة منهج هذا الإمام في تقويم المصطلح الديني قد يعتريه شيء من الصعوبة، لا سيما على غير أهل المراس لمصنفاته، لكنها محاولة علّها أن تجلي شيئاً من ملامح منهجه، مما سنح بها الفكر؛ بعد النظر والتأمل في بعض كتبه على اختلاف مناهجها، ولا يمكن سبرُ كلِّ ما كتب هذا الإمام؛ فهو عملٌ لا قِبل لي به.

ولتحضير مادة هذه الورقات طالعت عدداً لا بأس به من كتب الإمام الغزالي؛ وحاولت مجتهداً أن أقيد بعض ما لاحظته من منهجه في التعامل مع المصطلح الديني؛ والله الموفق.

---

(١) ميزان العمل، ص٦٠-٦١، ن: دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

(٢) انظر: الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، ص١١٦.

المبحث الأول: شروط الغزالي وضوابطه في المصطلح الديني.

في تتبعي لعدد من مصنفات الإمام الغزالي ظهر لي أنه يشترط في المصطلح الديني شروطاً لا بد من توافرها؛ حتى يكون مقبولاً للاستعمال في العلوم الشرعية والمعارف الدينية؛ ومن أهم ما يمكن تقييده في هذا؛ ما يلي:

أولاً: يؤكد الغزالي على أن الواجب على المسلم أن يتقيَّد بالشرع في أقواله وأفعاله، ولا شكّ أن العلم الشرعيَّ داخل في ذلك دخولاً أولياً؛ يقول في رسالته (أيها الولد): "كل ما تقول وتفعل، وتترك قولَه وفعلَه؛ يكون باقتداءِ الشرع" ويقول: "ينبغي لك أن يكون قولُك وفعلُك موافقاً للشرع، إذِ العلمُ والعمل بلا اقتداءٍ بالشرع ضلالةٌ."(١)

ثانياً: يؤكد الإمام الغزالي على عدم المبالغة في شرح الألفاظ وتفريعاتها؛ فيقول: "ولو سُئل فقيهٌ عن معنى من هذه المعاني؛ حتى عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء، لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها"(٢).

وفي حديثه عن المنطقيات؛ ذكر أنه لا يتعلق شيء منها بالدين نفياً أو إثباتاً، بل هي النظر في طرق الأدلة والمقاييس، وشروطُ ومقدماتُ البرهان...ثم بيّن أنّ هذا "من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات بزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات."(٣)

(١) أيها الولد، ص١٥، ن: دار البشائر، بيروت، ١٤٣١هـ.
(٢) الإحياء، ٤٤/١.
(٣) المنقذ من الضلال، ص٢٦.

ثالثاً: يشترط الغزالي في الألفاظ الشرعية عدم صرفها عن ظاهرها؛ إلا بضوابط ذكرها ونبه عليها: فيقف الغزالي من ذلك موقفاً حازماً؛ ويجعل صرف اللفظ الشرعي عن ظاهره من الطامات؛ بل وينبه إلى أنه من دأب الباطنية، ومذهبهم المنحرف في التأويل؛ فيقول ــ رحمه الله ــ: "صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة؛ كدأب الباطنية في التأويلات؛ فهذا أيضا حرام، وضرره عظيم".

ثم يبيّن ذلك الضرر فقال: " إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل؛ اقتضى ذلك بطلانَ الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به" ثم يقول: "والباطن لا ضبط له؛ بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهذا ــ أيضاً ــ من البدع الشائعة العظيمة الضرر."

ويوضح بأن هؤلاء قصدوا بإدخال التأويل الباطني، وأن للنصوص ظاهر وباطن، إلى إلغاء ظواهر النصوص، وهدم الشريعة، فلا أحد من المسلمين يستطيع أن يفهم النص إلا فهماً ظاهرياً، وأما باطن النص فلا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق خواصّهم، وأنهم قد وجدوا ذلك مقبولاً لدى بعض النفوس المائلة إلى الغريب المستلذّة له.

ويؤكد الغزالي بأن من يستجيز التأويلات الباطنية لنصوص الشرع؛ يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: "بل الشرّ في تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم؛ لأنها مبدِّلة للثقة بالألفاظ، وقاطعةٌ طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية".(١)

(١) الإحياء، ١/ ٧٢-٧٦.

ويعزو الغزالي سبب استخدام المصطلحات وتبديل ألفاظ الشرع والتلاعب بذلك من بعض من ينسبون أنفسهم إلى العلم والحكمة إلى قصد التلبيس على الناس.

رابعاً: أن من منهج الغزالي أنه يبين المصطلح الديني غير معتمد على المذهب السائد الذي قد ينتسب إليه: فحينما يذكر مصطلحاً دينياً فإنه يشرحه بما يراه صحيحاً مستقيماً؛ وإن خالف مذهبه الأشعريّ، ويذكر تفريعات ومحدَّدات جديدةً؛ وهذا ربما يظهر جلياً في شرحه لمصطلح (الكفر) أو حدّ الكفر في الشرع؛ فهو على مذهب الأشعري يختص بالتكذيب؛ لكن الغزالي؛ جعل التكذيب: نفي مراتب الوجود. وقد فصّلها في كتابه (فيصل التفرقة) [١] وليس هذا محلّ ذكرها.

خامساً: يحذر الغزالي من التحريف في الألفاظ المحمودة، وتبديلها لأغراض فاسدة: فقد عقد مبحثاً في (الإحياء) في: بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم؛ قال فيه: "اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة، وتبديلها، ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معانٍ غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول..." [٢]

سادساً: يشترط الغزالي في وضع المصطلح الديني صحةَ المقصد: ويذكر بأن المصطلحات التي يستعملها العلماء ــ بخاصة الفقهاء منهم ــ في بيانهم للشرع ينظر فيه إلى المقصد، فهو محل النظر، يقول ــ في معرض حديثه عن أقسام النوافل ــ: "فلفظ النافلة والسنة والمستحب والتطوع أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد ولا حرج على من

(١) انظر: فيصل التفرقة بين الكفر والزندقة، ص ٤١، ن: ١٤١٣ه، وقد صنف هذا الكتاب للرد على من زعم أن مخالفة مذهب الأشعري كفر.

(٢) الإحياء، ٦٣/١.

يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد" فالمقاصد هي المحك الذي يشاح فيه لا الألفاظ المصطلح عليها. (١)

سابعاً: ومن شرطه في حق الله جل وعلا ألا يوهم اللفظ معنىً يجب تقديس الله عنه: وهذا يكثر في ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم التي اصطلحوا عليها؛ يقول الغزالي في معرض حديثه عن (العشق) عند الصوفية: "فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه، والأوهام تختلف باختلاف الأفهام، فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ".

وهذا يندرج ضمن دفاع الغزالي عن الصوفية وتصحيحه لمذاهبهم، وتوجيهه لمقالاتهم، ومن ذلك تجويزهم استخدام مصطلحات أحدثوها في حق الله جل وعلا؛ كالعشق والوصال والأنس...! وما إلى ذلك؛ وهي ألفاظ مُوهمة! ولذا يشدد الغزالي بأن من لم يفهم مرادَهم؛ ويغوص في معاني ودلالات ألفاظهم؛ فيجب أن يُجنَّبَ هذه الألفاظَ والمعاني؛ لأنه قد لا يدرك من لفظة العشق إلا الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام..."!!. (٢)

وهو في موضع آخر ينكر على وُعَّاظ زمانه استخدامهم لألفاظ منكرة! عدلوا فيها عن المنهاج الواجب في الوعظ؛ فاشتغلوا ــ كما يقول ــ بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراء. (٣)

---

(١) الإحياء، ٣٧٤/١، وانظر: معيار العلم للغزالي، ص١٦، ن: دار المعارف، مصر،١٩٦١م.

(٢) الإحياء، ٢٥٩/٣.

(٣) الإحياء، ٢٣٥/٣.

فاشتراطه ألا يوهم اللفظُ معنى يجب تقديس الله عنه؛ من المحددات التي لا يمكن ضبطها، وهو منهج لا يمكن اطراده، فما يراه أحدهم أنه موهم؛ قد لا يراه الآخر موهماً، ولذا قال المحققون إن ما يجب لله سبحانه وما يمتنع عنه؛ يجب التوقيف فيه على ما ثبت في الشرع.

ويُشكِل على منهج الإمام الغزالي هاهنا أنه ــ في مواضع كثيرة ــ يطلب عدم الاشتغال بالاصطلاح، وأن المقصود هو المعنى وليس اللفظ! فيقول: "ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإن الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني؛ لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب" !!

وهذا ــ في نظري ــ يتعارض في ظاهره مع ما ذكره آنفاً.

هذه بعض الاشتراطات والضوابط التي استنتجتها بعد تأمل في مواضع من كتب الإمام الغزالي، وهي مجرد إشارات ولمحاتٍ؛ وإلا ففي طرحه لها تفاصيل يطول ذكرها.

****

المبحث الثاني: موقف الغزالي من المصطلح الديني المحدث.

المصطلحات المحدثة في العلوم الشرعية كثيرة؛ ولكل أهل فنٍّ من الفنون اصطلاح يصطلحون عليه؛ ولهم تفنّن في اختيار المصطلح، وسبب ذلك التوسعُ في العلوم، والاطلاعُ على الثقافات الأخرى، وكثرةُ المسائل المطروقة، واختلافُ المفاهيم، وتنوعُ أساليب التعلم والتعليم، وكثرةُ التصانيف، واختلافُ مناهج التأليف، وقد كان للإمام الغزالي موقف من تلك المصطلحات؛ أوجزه في النقاط التالية:

<u>أولاً:</u> أن الغزالي يرى بأن المصطلح المحدث يجب أن يكون معقولاً في نفسه، مؤيداً بالبرهان، غير مخالف للكتاب والسنة.

وحينئذٍ يجوز استخدامه، وإن كان مَن أحدثه ممن لا يجوِّز الغزاليُّ الاقتداءَ به، وقد ذكر ذلك في معرض رده على من أنكر عليه استخدامَ بعض المصطلحات التي أحدثها الأوائل (الفلاسفة)؛ فيقول: "ولقد اعترض – على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين – طائفةٌ من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرُهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرُهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل! مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية، وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه، مؤيداً بالبرهان؛ ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فَلِمَ ينبغي أن يهجر ويترك؟"(١)

بل ذكر في موضع آخر أنه ابتدع مسمّيات في بيانه لـ (ميزان المعرفة) وتوضيحه حقيقتها، فيقول ــ حين سُئل: "بأي ميزان تزن حقيقة المعرفة؟" ــ:"أزنها بالقسطاس المستقيم؛ ليظهر لي حقها وباطلها، ومستقيمها ومائلها، اتباعاً لله تعالى، وتعليماً من القرآن المنزل على لسان نبيه صلى الله

(١) المنقذ من الضلال، ص٤٥-٤٦.

عليه وسلم؛ حيث قال: {وزنوا بالقسطاس المستقيم} فقال: وما القسطاس المستقيم؟ فقلت: هي الموازين الخمسة التي نزلها الله تعالى في كتابه، وعلم أنبياءه الوزن بها...فاعلم أن موازين القرآن في الأصل ثلاثة: ميزان التعادل، وميزان التلازم، وميزان التعاند...فقال: هذه الأسامي أنت ابتدعتها، وهذه الموازين أنت انفردت باستخراجها، أم سُبقت إليها؟ قلت: أما هذه الأسامي فإني ابتدعتها، وأما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن، لكن أصل الموازين قد سُبقتُ إلى استخراجها ولها عند مستخرجيها من المتأخرين أسامٍ أُخر غير ما ذكرته." (١)

واعتذر في آخر كتابه (القسطاس المستقيم) عن استخدام مصطلحات ذكر أنه هو من أحدثها؛ فقال:"والتماسي من المخلصين قبول معذرتي عند مطالعة هذه المحادثات فيما أثرته في المذاهب من العقد والتحليل، وأبدعته من الأسامي من التغيير والتبديل، واخترعته في المعاني من التخييل والتمثيل، فلي تحت كل واحد غرضٌ صحيح، وسرٌّ عند ذوي البصائر صريح، وإياكم أن تغيروا هذا النظام، وتنتزعوا هذه المعاني من هذه الكسوة، فقد علمتكم كيف يوزن المعقول بالإسناد إلى المنقول، لتكون القلوب فيها أسرع إلى القبول، وإياكم أن تجعلوا المعقول أصلاً والمنقول تابعاً ورديفاً؛ فإن ذلك شنيع منفّر".(٢)

<u>ثانياً:</u> يرى الغزالي أنه لا مانع من استخدام المصطلحات المحدثة إذا كانت معانيها مدركةً.

ويؤكد أنه لا يُنتقد أحدٌ لتسمياتٍ وضعها، إذا كان المعنى مفهوماً معلوماً، لكنه يرى بأن الأولى اتباع عادة النظّار، وعدم استحداث مصطلحات لم تُتداول فيما بينهم، لأن ذلك قد يؤثر في فهم المتلقي. (٣) وإن كان لا يرى بأساً إن كان المتلقي ــ كما يقول ــ: "قد قويت في الدين شكيمته، واستقر في

(١) القسطاس المستقيم، ص١١و١٨و٤١، ن: ١٤١٣ه.

(٢) القسطاس المستقيم، ص٨١.

(٣) معيار العلم في فن المنطق١٤.

نفسه برهانه وحجته". ذكر ذلك في معرض كلامه عن صيانة العوام عن مجالس أهل الأهواء. (١)

ثالثاً: ينبه الغزالي إلى أن بعض الألفاظ والمصطلحات قد يكون استحداثها بسبب تغير في العقل، أو عجز عن التعبير عنها بعبارة توضحها.

ذكر ذلك في معرض حديثه عن الشطح الصوفي(٢) فقال: ""الصنف الثاني من الشطح: كلمات غير مفهومة؛ لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل؛ إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها؛ بل يصدرها عن خبطٍ في عقله، وتشويشٍ في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلامٍ قرع سمعَه؛ وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له؛ ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره؛ لقلة ممارسته للعلم، وعدم تعلمه طريقَ التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة".

ثم يبين ضرر استخدام تلك الألفاظ والعبارات بأنه "لا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب، ويدهش العقول، ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه...". (٣)

رابعاً: يوجه الإمام الغزالي في تلقي الألفاظ والمصطلحات المحدثة إلى أن يستنير المسلم بما كان معروفاً في عصر السلف من الصحابة.

ذكر ذلك عند تحذيره من اتباع علماء السوء بتبديل الأسامي؛ يقول "فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول؛ كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيماً،

---

(١) ميزان العمل، ص٤٨.

(٢) عرفه الجرجاني في كتابه: التعريفات، ص١٦٧، ن: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥ه بأنه: "عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة، ودعوى؛ تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهو من زلات المحققين! فإنه دعوى حق يفصح بها العارف؛ لكن من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة."

(٣) الإحياء، ٧٢/١.

فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ..."[١]

ويذكر بأن أهل الحديث من السلف قد اتفقوا على التشديد بعدم الخوض في المصطلحات الحادثة، وأنه لا ينحصر ما نُقل عنهم من التشديدات فيه، وقالوا ما سكت عنه الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد عنه من الشر. [٢]

<u>خامساً:</u> يوجب الغزالي النظر في الاشتراك في اللفظ، وما يسببه من الغلط في الفهم.

وقد ذكر بأنه "إذا انتفى الاشتراك حقيقةً ولفظاً لم يغلط الذهن فيه، فإن ذلك يظهر، وإنما يغلط إذا وجد ما هو مشترك لفظاً مع اختلاف المعنى، ولذلك وجب تحقيق القول في الألفاظ المشتركة، لا سيما ما يشتبه منها بالمتواطئة، ويعسر فيها درك الفرق، وهو مثار عظيم للأغاليط." [٣]

<u>سادساً:</u> تأكيده على أنه يجب ألا يتشبث الذهن بالألفاظ دون أن يحصِّل المعاني بحقائقها.

ويذكر بأن ذلك من أسباب الغلط في الفهم والإدراك، والوقوع في الزلل والخطأ، ويقول إن "أكثر الأذهان يعسر عليها درك مجردات المعاني من غير التفات إلى الألفاظ."

****

(١) الإحياء، ١/٧٥..

(٢) الإحياء، ١/١٨٤.

(٣) معيار العلم، ص ٤٥.

وقد ظهر لي بعد هذا البحث المختصر؛ ما يلي:

١ــ أن الإمام الغزالي له باع كبير في الغوص في الدلالات والمعاني، وإبحار في المصطلحات، وقد استخدم في مصنفاته أنواعاً من ذلك، مما قد يُنتقد بسببه.

٢ــ أن الخوض في الحقيقة المعرفية عند الغزالي؛ تربك الباحث، وتجعله أمام متفننٍ في العلوم محيّرٍ للعقول، متحررٍ من التقيد برأيّ، مصرّحٍ بمخالفة ما عليه علماءُ مذهبه.

٣ــ ظهر لي من خلال هذه الدراسة وجاهةُ ما ذهب إليه بعض الباحثين في فكر الغزالي من أنه تأثّر بما مرّ فيه من أطوار فكرية على إنتاجه العلمي بصفة عامة، وعلى منهجه في تناول القضايا الدقيقة في علوم متفرقة؛ كعلم الكلام والفلسفة والفقه وغيرها.

٤ــ أن الغزالي يؤكد على أن المصطلح الديني يجب أن يُتقيد فيه بالشرع، ولا يجوز أن يخالف الكتاب والسنة؛ وأن المصطلحات والألفاظ الشرعية الواردة في النصوص يجب ألا تُصرف عن ظاهرها المفهوم إلا بدليل؛ وما سوى ذلك فإنه يقتضي بطلانَ الثقة بالألفاظ الشرعية...كما ويشترط في الاصطلاح صحةَ المقصد...

٥ــ أن المصطلحات التي تكون في حق الله تعالى يجب ألا توهم معنى يجب تقديس الله عنه.

٦ــ لا يرى الإمام الغزالي حرجاً من استخدام ألفاظ ومصطلحات محدثة في كل فن من الفنون؛ بل ذكر بأنه هو قد ابتدع مصطلحات اصطلح عليها؛ ولكنه يشترط أن تكون معقولة في نفسها، غير مخالفة للكتاب والسنة، وأن تكون مفهومةَ المعنى...

****

أهم المصادر:

١.الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك. ن: كلمات عربية.

٢.الإمام الغزالي، صالح الشامي، ن:در القلم، دمشق،١٤١٣ه.

٣.البداية والنهاية، لابن كثير، ن:هجر، مصر، ١٤١٧ه.

٤.التعريفات، للجرجاني، ن: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥ه

٥.الحقيقة في نظر الغزالي، سليمان دنيا، ن: دار المعارف، مصر.

٦.سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، ن: مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٤٠٥ه.

٧.سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه، عبدالكريم عثمان، نشر: دار الفكر بدمشق.

٨.طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ن: دار هجر، مصر،١٤١٣ه.

كتب الإمام أبي حامدٍ الغزالي:

١) إحياء علوم الدين، ن:دار المعرفة، بيروت.

٢) إلجام العوام عن علم الكلام، ص٤٢، ن: دار المعرفة، بيروت، ١٤١٥ه.

٣) أيها الولد، ن: دار البشائر، بيروت، ١٤٣١هـ.

٤) فيصل التفرقة بين الكفر والزندقة، ن: ١٤١٣ه

٥) القسطاس المستقيم، ن: ١٤١٣ه.

٦) قواعد العقائد، ن:عالم الكتب، بيروت،١٤٠٥ه.

٧) المستصفى في علم أصول الفقه، ن: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧ه

٨) معيار العلم في فن المنطق، للغزالي، ن: دار المعارف، مصر،١٩٦١م.

٩) المنقذ من الضلال، ن: المكتبة الثقافية، بيروت.

١٠) ميزان العمل، ن: دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

Sources:

1. Al-Akhlak enda Al-Ghazaly, Zaki Mubarak. V: Kalemat Arabyia.
2. Al-Imam Al-Ghazali, Salih Al-Shami, V: Der Al-Qalam, Damascus, 1413 AH.
3. Al-Bedayah wa Al-nehaya by Ibn Katheer, V: Hajar, Egypt, 1417 AH.
4. Al-Tarefaat by Jarjani, V: Arab Book House, Beirut, 1405 AH
5. Al-Hakekah fe Nazr Al-Ghazali, Soliman Dunya, V: Dar Al-Maarif, Egypt.
6. Sair Aalaam Al-Noblaa, Shams al-Din al-Dhahabi, V: Al-Resala Foundation, Damascus, 1405 AH.
7. Sirah Al-Ghazali wa Akwal Almotaqadmin feh, Abdul Karim Othman, published: Dar Al-Fikr in Damascus.
8. Tabakat Shafi'i, Taj al-Din al-Subki, V: Dar Hajar, Egypt, 1413 AH.

Books of Imam Abu Hamid al-Ghazali:

1) Ihyaa Uloom Al-Deen, V: House of Knowledge, Beirut.
2) Algam Alawaam Ann ilem Alkalam, p. 42, V: Dar al-Maarifa, Beirut, 1415 AH.
3) Ayoha Alwalad, V: Dar Al-Bashayer, Beirut, 1431 AH.
4) Faisal Altafrekah Bain Alkofr wa Alzandakah, V: 1413 AH

5) Al-Qostas Almost, V: 1413 AH.
6) Qawaaid Alaqaid, V: Aalam Alkotob, Beirut, 1405 AH.
7) Al-Mustasfi fi Alem Asoul Alfeqh, V: Al-Resala Foundation, Beirut, 1417 AH
8) Miyar Al-ilem Fi Fan Almanteq, by Al-Ghazali, V: Dar Al-Maaref, Egypt, 1961.
9) Al-Munqidh Min Dalal, V: The Cultural Library, Beirut.
10) Mizan Al-amal, V: Dar Al Ma'arif, Egypt, 1964.